مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 138 - 158 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الدلالات الصوفية في شعر صلاح عبدالصبور

The Sufi Significances in Salah Abdel-Sabour Poetry

* ط. د: قطاف جلول[1] ، أ.د. بن سعيد محمد[2]

Guettaf Djelloul [1], Ben said mohamed [2]

مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب، جامعة احمد بن بلة وهران /الجزائر

University of Oran- Algeria

pemar03guettaf@gmail.com[1]

bensaid-m@hotmail.com [2]

تاريخ الإرسال:2020/04/20	تاريخ القبول:2020/10/23	تاريخ النشر: 2021/06/02

ملخص البحث

تحتل المفردة الصوفية مساحة كبيرة في الشعر العربي المعاصر، واغلب القصائد الدائرة في هذا المجال عبارة عن خطابات أو رسائل تغوص في عمق واقع يرفضه الشاعر وكثيرا ما يصطدم به فينشأ الصراع بين الأنا والآخر، بين الشاعر والسلطة فانطلاقا من القهر المسلط على الإنسان المعاصر تبقى مظاهر الاحتجاج والإدانة والانسحاب هي صرخة تعكس ذلك الوعي التعيس جراء تأمل الذات لذاتها ولمن حولها وإدراك الوجود المهترئ من خلال علاقات إنسانية متوحشة ومفتقدة إلى براءات البدايات، أمام هذا الوضع كان طبيعيا أن يترع الشاعر نحو التصوف ليستلهم منه ما اتسم به من رفض ليواجه به هذا العالم ذي القيم المتأكلة، ذلك لأن التصوف قد عرف منذ وقت بعيد بالتمرد والثورة . ولعل بعض عناوين القصائد مثل: مأساة الحلاج لصلاح عبدالصبور وغيرها من القصائد تعبر عن أحوال النفس بعبارات ذات دلالات تتفاوت إماءتها وتتشعب ولاسيما وأن التصوف فناء وحيرة وقلق ومجاهدة، فهو عملية تطهيرية متواصلة على الأشكال الموروثة.

الكلمات المفتاحية: تصوف ؛ صلاح عبدالصبور؛ دلالات ؛شعر معاصر.

Abstract :

The Sufi vocabulary occupies a large area in contemporary Arab poetry, and most of the poems in this area are letters or letters that dive deep into a reality rejected by the poet and often collide with it, creating a conflict between the poet and the other, between the poet and the authority, starting from the oppression of the contemporary human being, the manifestations of

* قطاف جلول . pemar03guettaf@gmail.com

protest, condemnation and withdrawal remain a cry that reflects that unhappy awareness of self-reflection and those around it and the realization of the existence of the lost through brutal human relations and the lack of patents of beginnings, in front of this situation, in front of this situation. It is natural for the poet to aspire to Sufism to be inspired by his refusal to confront this world of eating values, because Sufism has long been known as rebellion and revolution. Some of the titles of the poems, such as: The Tragedy of Halaj by Salah Abdel Saboor and other poems express the conditions of the soul in terms of semantics that vary in nature and branch, especially since sufism is vanishing, confusion, anxiety and struggle, it is a continuous cleansing process on inherited forms.
Keywords: Sufism, Salah Abdel Sabour , Indications, Contemporary poetry

تمهيد

لقد ظلت القصيدة العربية من خلال لغتها على علاقة بتراثها الشعري بل وتستمد مشروعيتها من خلال ذلك التراث. حيث اتجه اليه الشاعر المعاصر لينهل منه ويطور به نتاجه الشعري. كما يعد التراث الصوفي من اهم المصادر التي استخدمها الشاعر المعاصر كشخصيات واصوات يعبر من خلالها عن ابعاد تجربته في جوانبها المختلفة فكرية وروحية واجتماعية وسياسية والاكيد انه كلما ازداد تعقد الحياة حول الاديب واشتد الابتذال في محيطه ازداد امعانا في التجربة الصوفية. فالشاعر يسعى في هذا الوجود الى تحقيق ذاته الا اننا نلاحظ الذات تعيش نوعا من القلق والتوتر كما يحاصرها الفناء من كل جانب مما ولد لديها شعورا بالآلام والمعاناة هذا ما دفع الشاعر المعاصر الى التعبير عن هذه المعاناة في اشكال واطر مختلفة وكانت التجربة الصوفية هي الاطار الاقرب للتعبير عن الصراع مع هذا الوجود .ففي التجربة الصوفية تتحد الارادة الانسانية مع العاطفة في الرغبة الملحة التي تدفع بالنفس دفعا الى تجاوز عالم الحس والعقل الى عالم تصل فيه عن طريق الحب الى محبوبها. فالصوفي مثل الشاعر لاهم له الا اكتشاف الحقيقة ولتحقيق الغاية يقوم برحلة لتصفية النفس وترويضها وتهذيبها حتى تكتشف روحه . ويكون اهلا للكشف والمشاهدة والتلقي. وقد كان من الضروري ان يستلهم الشاعر المعاصر تلك التجربة ليتمكن من سبر اغوار الذات الانسانية وكشف ملامح القوة والضعف وصراع الانسان في هذا العصر. وقد وظفت هذه التجربة في شعرنا المعاصر بمستويات مختلفة الا انها قد ارتبطت في مجملها بظاهرة

الحزن والتشاؤم التي يعيشها الانسان في عالمه السفلي وبالتالي فقد كانت الاشعار تحمل فكرة الخلاص من الواقع الزائف وهذه الفكرة تبناها الشاعر صلاح عبدالصبور فقد ارتدى قناع الصوفي وقام برحلة اتسمت بالمعاناة غايتها الخلاص من سجن المادة والزمن. فهو يعيش مواجهة مع نفسه. فقد قام بتعرية الذات وهذا الموقف قد جعله يستحضر مواقف صوفية عرفانية .لذا لجا عبدالصبور الى التجربة الصوفية بدلالاتها المختلفة لإبراز الذات نحو الخلاص الواقعي من منظور صوفي بحت.

أولا : صلاح عبد الصبور وتجربته الصوفية :

ارتبط التصوف في سيرورته التاريخية بالدين والفلسفة وتداخل معهما وامتزج بهما فقد يؤول الصوفي تجربته من منظور ديني وينزع منزعا فلسفيا تختلط فيه روحانيته بالنزعة الميتافيزيقية الى عالم الطهر والنقاء يستعيد فيه الإنسان عالمه الإلهي، ويذهب صلاح عبد الصبور الى الحد الذي يوجد فيه بين التجربتين فهما كما يرى " تنبعان من منبع واحد وتلتقيان عند غاية واحدة هي العودة بالكون الى صفاته وانسجامه "1

فالشاعر والصوفي لكل منهما معناه وقلقه وبحثه المتواصل عن العدل والحقيقة وترقبه للحظة الإلهام والتجلي، ولعل التقاء عبد الصبور مع الصوفي للحياة والكون هي التي جعلته يرى في التراث الروحي الصوفي الذي ينتصر للقلب على العقل، وللخيال عن الواقع وسيلة لمواجهة قضايا الكون وطغيان الحياة القاسية، فأنسحب من الواقع وتجاوزه بقوة روحه الافق الانساني وتسعت رؤيته وبصيرته بعيدا عن مجتمعه وأنانيته، فقد كانت ثقافته الصوفية سمة بارزة في أشعاره، واستمد منها شخصيات وأصوات يعبر من خلالها عن أبعاد من تجربته بشتى جوانبها الفكرية والروحية، وقرأ عبد الصبور التراث الصوفي وعايشه واستخدم الكثير من المصطلحات كالعشق والجد ،والخروج، والنار ... واستمد منها النماذج البشرية ذات الايحاءات الصوفية "مذكرات الصوفي ستر الحافي " وقصيدة " رسالة الى صديقة" وقصيدة "مأساة الحلاج"

قرأ صلاح قصة بشر الحافي بعد أن مال الى التصوف فيشير كما يذكر الشاعر : " مشى يوما في السوق فأنزعه الناس فخلع نعليه وضعهما تحت إبطيه، وانطلق يجري في الرمضاء، فلم يدركه أحد وكان ذلك مئة سبع وعرين ومائتين "2

فقصيدة مذكرات صوفي لبشير الحافي تبدو وكأنها مقدمة لظهور العلاج ومذهب الخير المطلق فالصوفية في هذه الشخصية تصلح لتفسيرات الوثبات الوجدانية .

يقول مخاطبا الشبلي :

الحلاج : هبنا جانبنا الدنيا

ما نصنع عندئذ بالبشر ؟!

الشبلي : الشر

ماذا تعني بالشر ؟

الحلاج : فقر الفقراء

جوع الجوعي ... 3

استسقى صلاح مسرحيته من التاريخ وأعد صياغة الاحداث بتشكيل جديد يتفق ومجابهة الشاعر لها فكان صلاح هو القناع أو البديل الموضوعي للشاعر في معاناته ولعله تعبير عن أزمة صلاح عبد الصبور ومأساته الخاصة، ولذا يكون الحلاج معبرا عن صوته الشعري وموقفه الذاتي

أما في قصيدته "رسالة إلى صديقة" والّتي يلتقي فيها بالشّيخ محي الدّين الّذي يرمز إلى معنى الارتقاء الرّوحي إلى درجة التّسامي يقول:

بالأمس في نومي رأيت الشّيخ محي الدّين

مجذوب حارتي العجوز

كان في حياته يعاين الاله

تصوري، ويحتلي سناه

وقال لي: ونسهر المساء

مسافرين في حديقة الصّفاء

يكون ما يكون من مجالس السحر 4

فقد كان عذاب الحلاّج طرحا لعذاب المفكرين في معظم المجتمعات الحديثة، وحيرتهم بين السّيف والكلمة، يقول صلاح عبد الصبور معلّقا على هذه المسرحية "أمّا القضية الّتي نطرحها فقد كانت خلاصي الشّخصي، فقد كنت أعاني حيرة مدمرة إزاء كثير من ظواهر عصرنا ...وكنت أسأل نفسي السؤال الّذي سأله الحلاّج لنفسه ماذا أفعل؟ وكانت إجابة الحلاّج هي أن يتكلم

ويموت. فليس عندي الحلاّج صوفيا فحسب، ولكنه شاعر أيضا والتّجربة الصّوفية والفنّية تنبعان من منبع واحد...وهي العودة بالكون إلى صفائه"5 قد يجتمع الشاعر والصوفي في الشخص الواحد، فيغدو من المفكرين الذين آلوا على أنفسهم خدمة قضيتهم ولو كان الموت بانتظارهم .

ثانيا :الدلالات الروحية:

تعد التجربة الصوفية ذوقية ذات طابع فردي، فالإنسان لا يصل إلى حقيقة هذه المعرفة الصوفية وصفاء التوحيد حتى يعبر (الأحوال، المقامات) وقد عبر عنها الصوفية بمصطلحات متنوعة 6 " المكاشفة / التجلي / الإشراقي، وهي معارف لا تستوعبها اللغة الطبيعية " لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنزلات والمواجيد لأن الأحوال لا تدرك بالنظر والقياس.... "

وقد اشتهر عند الصوفية تقسيم المعرفة إلى درجات ثلاث هي: 7 علم اليقين / عين اليقين / حق اليقين /، وهي ألفاظ مستمدة من القرآن الكريم، وهذه التجربة لا تنتج عنها معارف ملزمة تقدم حجة على الغير، تبقى تمتلك أحقيتها في الوجود بصفتها جزءا من الوجود الإنسان لتمثل حالة قصوى من التروح الروحي في التأمل الديني تشهد على أنها أمر من بين الأمور التي نتعرف عليها، ولكن لا تحيط بها علما والملاحظ أن هناك في الظاهرة العرفانية جانبين مما يزيل8 العرفان كموقف من العالم، والعرفان كنظرية لتفسير الكون والإنسان، إن العرفان كموقف من العالم هو موقف نفسي وفكري ووجودي، والطابع العام لهذا الموقف هو الانزواء والهروب من العالم والتشكي من وضعية الإنسان فيه، وبالتالي الجنوح إلى تضخيم الفردية والذاتية، تضخيم العارف ب: (اناه) ينطلق هذا الرفض أول ما ينطلق من القلق والشعور بالخيبة إزاء الواقع الذي يجد العارف نفسه فيه حقيرا، فيرفض هذا الواقع، يتمرد ويشعر بالغربة، فيسعى إلى الرحيل عن هذا العالم بالبحث عن طريق الخلاص، فهذا الموقف العرفان يتلخص في البحث عن الذات، عن حقيقتها وجوهرها الأصلي، وهذا النوع من الطريق إلى الخلاص هو مقصور على الصفوة الذين يشكلون طبقة " الروحانيين الذين يتميزون عن "النفسانيين" وعن الماديين والجسمانيين وللصوفي مع هذه المعرفة الصوفية حالتان: حالة تسبق المعرفة وتتمثل في الإقبال على المحبوب إلى غاية نيل رضاه والابتعاد بذلك تدريجيا عن حالات القلق والتوتر، أما الحالة – الثانية فهي حالة امتلاك

الصوفي للمعرفة وفي هذه المرحلة يتحقق الاستقرار التام، والمعرفة العرفانية الصوفية هي حياة القلوب من علام الغيوب وخلوة السريرة على كل ما سواه .

فإذا كان العلماء يطلقون لقطة المعرفة على علم الله، فان المتصوفة قد أكدوا أن المعرفة أكمل واشمل، فالمعرفة الصوفية هي نوع من الإدراك عن طريق الذوق والوجدان بعيدا عن البعد العقلان الصرف نجدها بمدركات الحواس، وغايتهم من الى المعرفة هو اللقاء بالله مباشرة، والمتصوف يتلقى المعرفة دون اختيار ولا إرادة وانما عير نور يهبط من السماء بعد عملية الوارد أو الهاتف أو الصوت الخفي فتصبح حالته جراءها سلبية صرفة فيحدث الفناء، فيختل اتزان "أناه".

فإذا كان التصوف يتميز عن الشاعر حيث يرى نهاية الطريق الفناء بالله، ومع ذلك فهناك وشائح تجمع بين موقفي كل من الصوفي والشاعر، فهناك تماثل وتشابه بين الموقفين، لأن الشاعر كالصوفي يسعى لإنهاء نقص العالم، وعلى هذا فان الصلة مهما تنبثق من سعى كل منهما إلى تصور عالم أكثر كمالا من الواقع، وتلعب العاطفة دورها الأساسي في التجربة الصوفية، حيث تتحد الإرادة الإنسانية مع العاطفة في رغبة ملحمة، تدفع بالنفس إلى تجاور عالم الحس إلى عالم تصل فيه عن طريق الحب إلى محبوبها الأول الذي تدركه النفس ذوقيا، ذلك لأن التصوف كالفن لا وجود له بدون العاطفة الجامحة باعتباره يمثل الجانب الروحي.

ولقد استعان الشاعر المعاصر بالتجربة الصوفية لوجود قواسم مشتركة بين الشاعر والصوفي لاسيما التأمل والاستكشاف، فقد ساعدته التجربة الصوفية في تشكيل رؤية معرفية لإدراك حقيقة الكون والوقوف على تحديد العلاقات، من اجل تحقيق هذه الغاية ليعيش مرحلة تهيؤ واستعداد، فإذا كان الصوفي في تأملاته ينطلق من عمليتي "التمكين والتلوين" فإن الشاعر يختار لحظة زمنية يكون فيها أقرب إلى ذاته، وهذه اللحظة غالبا ما تجيء في الليل أين تكون ذاته صافية مهيأة لتدبر الكون وما فيه بعيدا عن ماديات الواقع، في هذه اللحظات تعيش الذات مع خالقها بحثا عن الحقيقة.

ولعل قصيدة " رؤيا "9 لصلاح عبد الصبور من القصائد الدائرة في هذا المجال .

يقول الشاعر:

في كل مساء

حين تدق الساعة نصف الليل،

وتدوي الأصوات
أتداخل في جلدي، أتشرب أنفاسي
وأنادم ظلي فوق الحائط
أتجول في تاريخي، أتتره في تذكاريتي
اتحد بجسمي المتفتت في أجزاء اليوم المميت
تستيقظ أيامي المدفونة في جسمي المتفتت
اتشابك طفلا وصبيا وحكيما محزونا
يتألف ضحكي وبكائي مثل قرار وجواب
اجدل حيلا من زهدي وضياعي
لأعلقه في سقف الليل الأزرق

القصيدة بها شطحة صوفية حيث تتكئ الذات على نفسها، وتمثل كيان الشاعر ولكنها ليست صوفية صرفة.

يكشف المقطع من خلال دلالات الأفعال المضارعة المتعاقبة (أتداخل، أتشرب،أنادم، أتجول، اتحد...) عن دخول الذات (ذات الشاعر) في رحلتهما الطقوسية التي يستيقظ فيها عالم الأحلام والذكريات، فتقف الذات كما يعبر صلاح عبد الصبور في مواجهة حادة مع نفسها، فتنقسم إلى ذات ناظرة وذات منظور فيها، هذه الذات تعيش حالة من الضدية ضحك وبكاء، زهو وضياع، فتبدأ المحاكمة: محاكمة الذات المنقسمة على نفسها لتصبح قاضية ومتهمة في نفس الوقت، فهي حالة عرض الذات على مرآهما وبلوغ المعرفة عن طريق كشف سر هذه الذات وإزالة حجبها تبدا الذات رحلتها الشاقة عبر تعاقب الليل والنهار، تبدأ الرحلة عندما تخلد الذات إلى نفسها وتتخلص من آثام النهار .

يقول صلاح -:10
حين تدق الساعة دقتها الأولى
تبدأ رحلتي الليلية
أتخير ركنا من أركان الأرض الستة
كي أنفذ منه غريبا مجهولا

ينكشف وجهي، وتسيل غضون جيني
تتماوج فيه عينان معذبتان مسامحتان
يتحول جسمي دخانا ونداوة
ترقد أعضائي في ظل نجوم الليل الوهاجة (المنطفئة)

تبدو ذات الشاعر متعبة، فهو معذب ومقهور، يحاول الهرب من مواجهة الحقيقة (أتخير ركنا كي أنفذ) فالذات عاجزة عن مواجهة مصيرها، لكونها تعي حقيقتها، فهي مفردة ووحيدة، وأنها للفناء الذي يحاصرها من كل جانب، ومن ثمة فهي مجبرة على الاستسلام لتلك القوى، لاسيما وأن الليل يكون فيه الإنسان اقرب إلى ذاته، أو بالأحرى أقرب إلى حقيقة وجوده، وتتجلى حقيقة الذات أكثر عند هبوطها إلى عوالم النهار، تلك العوالم التي يراها "صلاح" مليئة بالزيف والكذب والنفاق التي كشفت أسراره وعمقت إحساسه بالقهر والمحدودية والضآلة، وهذا ما جعله يتزوى ويتقزم (أتجمع فأرا، أهوى من عليائي) فهذه هي صورة إنسان هذا العصر المثقل بالألم والعاجز أمام تلك القوى القاهرة، فالشاعر مدرك لحقيقة تلك الآلام وذلك الشعور المدمر، وهذا التمرد اقرب إلى الصوفية يتجلى ذلك في قوله: 11

تظل حقيقة في القلب توجعه وتضنيه
ولو جفت بحار القول لم يبحر بها خاطر
ولم ينشر شراع الظن فوق مياهها ملامح
وذلك ما نلقاه لا نبغيه، وما تبغية لا نلقاه ،
تعالى الله، هذا الكون موبوء ولا برء
تعالى الله، هذا الكون لا يصلحه شيء
فأين الموت ؟ أين الموت ؟ أين الموت ؟

انطلاقا من النماذج السابقة يتضح أن الشاعر قد كشف ذاته، كشف سترها وأزال حاجبها ليضعها وجها لوجه أمام حقيقة عارية، فهذه المواجهة مع الذات إما أن تسفر عن مصالحة تامة ودائمة مع النفس كما هو الشأن مع الصوفية عندما يتخلون عن عوالمهم وتتمحي ذواتهم بخلاصهم في الله، وإما أن تسفر عن قلق إنساني مدمر يشكل آلام الإنسان كما جسدته بعض مقاطع قصيدة "رؤيا " لصلاح عبد الصبور.

وهكذا نجد أن الشعر الصوفي المبني على العلو والتجاوز، يثري المركز الإلهي ولكنه لا يلبث بعد ذلك أن يرتفع بالجانب الإنسان إلى هذا المركز ليتماهى معه ويتحقق بصفة الاكتمال، وهنا تنتهي العلاقة القائمة على التضحية بأحد الطرفين الصالح الآخر، فبدلا من إفقار الإنسان وإبطاله لصالح أغناء الإلهي وإطلاقه يتم السمو بالطرف الإنساني من خلال ارتقاء الصوفي في الجوهر العالي والتحامه به ربما كان من الممكن القول أن إثراء الصوفي للمركز الإلهي لا يعدو أن يكون اثراء لذاته وإعلاء لكينونته وتعزيزا لمعنى وجوده.

ثالثا :الدلالات الاجتماعية والسياسية

يعيش الإنسان في حياته متمتعا بحريته ومراقبا لسلوكياته متحملا مسؤوليته تجاه ذاته واتجاه الآخرين، لا يكدر صفو حياته سوى القهر المسلط عليه من قبل القوى التي تتحكم في مصيره وجبروت الموت، حيث تعتبر تجربة الموت بمنزلة الإدانة الكاملة للوجود والإنسان، وهي رؤية على الرغم مما يبدو فيها من العدمية والاستجابة إلا أنها ذات نزوع ايجابي من حيث كونها تنظر إلى الواقع المتهدم بعين الرفض وتريد أن تتجاوزه، ولذلك فإنها انطلاقا من هذا المنظور الوجودي شبيهة إلى حد كبير بالرؤية الصوفية التي لا تعدو أن تكون موقفا وجوديا من الحياة محاولة من خلال الرفض والانصياع الذي تنتهجه، العودة بالأشياء إلى انسجامها وبراءتها الأولى والقضاء على الوعي المنقسم، وتحقيق الاتحاد المطلق، وبالتالي قهر الاغتراب هذا الاغتراب لم يكن شبيها باغتراب الفرد العربي الذي كان 12 " وليد انهيار حضاري ودخول تشكيلة اجتماعية واقتصادية في مأزق، حيث يحاصر الفرد من قبل مؤسسات فيشعر بالضياع وانهيار قيمه " وإنما كان اقترابه قهريا افترضه واقع رجعي دكتاتوري لا يجد فيه هناءته، ولا تحقيقا للطموحات، أمام هذه الإشكالية تتشكل الامه ومعاناته، فراح يعبر عن قربته، سواء أكانت انفرادية او موضوعية، ولا شك إن خلاصه من هذه الوضعية لا يتأتى إلا عبر التجربة الصوفية التي تعتبر الإطار الأقرب للتعبير بها وفيها عن صراع الإنسان مع هذا الكون، حيث استطاع الإنسان أن يحمل تلك التجربة قلقه وإحساسه بالعجز أمام مسؤولياته الهائلة، كما حملها موقفه من هذا الوجود، لاسيما وأن الصوفية جاءت كردة فعل ضد الانهيار الذي دلفت إليه الحياة، وضد التشبث بقشور الدنيا والإغراق في الشهوات، ومنها ثورة أبي ذر الغفاري ولذلك فلجوء الشاعر الى هذه التجربة هو مواجهة قيم

المجتمع المتأكلة، ولا شك أن وعي الشاعر بإشكالية العصر الانساني هو وليد. معاناة الانسلاخ والغربة الروحية المتمخضة عن غياب الحس الأخلاقي.

من هنا وجد الشاعر ملاذه في التجربة الصوفية، التي تدفع بالنفس إلى تجاوز عالم الحس والعقل إلى عالم تصل فيه عن طريق الحب إلى محبوبها الأول الذي تدركه النفس بالذوق الصوفي.

ففي قصيدة13 "مذكرات رجل مجهول" لصلاح عبد الصبور يطرح الشاعر معاناة الإنسان في هذه الأرض، وقد نجح في رسم تلك المعاناة لكونه قد جعل تلك المذكرات لرجل غير محدد، كما جعلها تستمر عبر الزمن والمكان، كما صيغ على تلك المذكرات صفة استمرارية زمنيا ومكانيا، فهي تسعى دوما إلى الخلاص.

يقول:

أصحو أحيانا لا ادري لي اسما
أو وطنا، أو أهلا،
أتمهل في باب الهجرة حتى يدركني وجداني
فيثيب إلى بداهة عرفاني
متمهلة في رأسي تهوى في أطرافي ثقلا
تلقى مرساها في قلبي ...
هذا يوم مكروه من أيامي
يوم مكروه من أيام العالم
تلقتني فيه أبواب في أبواب
ويعللني عرقي ثوبا نسجته الشمس الملتهبة
ثوبا من إعياء وعذاب
وأعود إلى بيتي مقهورا
لا ادري لي اسما
أو وطنا أو أهلا

يبرز المقطع حالة الفقد المؤلم التي يعيشها الشاعر (الإنسان) لاسيما وأن الأمر يتعلق بالهوية (لا ادري لي اسما، أو وطنا، أو أهلا) وتتعاظم هذه الأزمة عندما يحس الإنسان بأنه يواجه زمنا

أو عالما زائفا، فحياته لم تعد سوى عملية اجترارية روتينية لا طعم فيها، فأمام هذا الوضع وجد نفسه مقهورا "و أعود إلى بيتي مقهورا".

وقد حرص الشاعر على تحقيق هذا الموقف الذي سيعمق أكثر إحساسه بأزمة الإنسان بقوله: 14

الأرض بغي طامث
دمها يجمد في فخذيها السوداوين
لا يطهرها حمل أو غسل
من ضاجعها ملعون
الأبنية المرصوصة في وجه المارين سجون
سجانوها الحيطان وقرب الإنسان من الإنسان
سجنا أبديا .... يا مسجون
والأيام الأشراك
من تحت ملاءتها أخفتها عنا مائدة الإفطار
في الشارع غطتها أوراق الأشجار
علب التبغ الملقاة، وأوراق الصحف الممذوقة
والبسمة في عين الجار
فاسقط يا مطعون

إن أول ما يلاحظه القارئ هو أن الشاعر "صلاح" يدرك ما مدى فساد الواقع الذي يعيش فيه نتيجة لشعوره بفقدان الوجودية وبالتالي الذاتية، فهو يصرح بأن الأرض التي تطأ عليها قدماه هي ارض ملعونة، فليس أمام النفس الأبية إلا الرحيل، ولاسيما وأنها محاصرة بكل ما يحث على الفرار، يمكننا تلمس ذلك من خلال التشكيل اللغوي للمفردات "فالأبنية المرصوصة /سجون / الحيطان/ شجون /الأيام شراك/ قرب الإنسان من الإنسان سجن آخر، فالإنسان يصطدم بواقعه الذي يعوق سبيله من اجل تحقيق طموحاته .

إن القصيدة السابقة في واقع الأمر قصيدة صور فيها الشاعر أيامه في ظل الهزيمة، أين عاش زمنا أليما شعر أمامه بالضياع وتملكته الرغبة في الهروب والانتماء، لأنه أمام" يوم تافه أحرقناه إربا

إربا ورميناه لساعات هذا يوم كاذب... ويزداد طغيان الأسي عليه لأنه أمام" يوم بعناه للموت اليومي"

لهذا فإن ما شعر به من قلق وحزن كان نتيجة لما أصاب وطنه من هزيمة قاسية، هذا ما جعل فكرة الموت تسيطر عليه. وقد ظلت الترعة التشاؤمية تطارده حيث يقول على لسان "بشر الحافي" في قصيدته "مذكرات بشر الصوفي الحافي"15

تظل حقيقة في القلب توجعه وتضنيه16

ولو جفت بحار القول لم يبحر بها خاطر

ولم ينشر شراع الظن فوق مياهها ملامح

وأن ذلك أن ما نلقاه لا نبغيه

وما تبغية لا نلقاه

إن الشعور بالأسى هو الهاجس المسيطر في اغلب قصائد صلاح لعل المفارقة التي ذكرها في المقطع السابق بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون "ما نلقاه لا نبغيه وما نبغيه لا نلقاه" يؤكد ما ذهبنا إليه.

فظاهرة الحزن هذه قد ارتبطت بقصائد صلاح غير أن الشاعر أو الإنسان يظل يبحث عن المعنى الحقيقي لهذه المفردة (الحزن) في أعماقه.

يقول صلاح: 17

هناك شيء في نفوسنا حزين

قد يختفي، ولا يبين

لكنه مكنون

شيء غريب، غامض، حنون

لعله التذكار،

تذكار يوم تافه بلا قرار

أو ليلة قد ضمها النسيان في إزار

"لو غصت في دفائن البحار

لجمعت كفاك من محارها

تذكار".

لعله الندم

فأنت لو دفنت جثة بأرض

لأورقت جذورها، وأينعت ثمار

ثقيلة القدم

لعله الأسى

الليل حينما ارتمى على شوارع المدينة

واغرق الشطآن بالسكينة

تهدمت معابر السرور والجلد

لا شيء يوقف الأساه ... لا احد

يستيقظ الشيء الحزين في أواخر المساء

يمدد في الأطراف والأعضاء

ويثقل العينين والبزة والإيماء

لكنه حنون

لقد قدم الشاعر كل الحيثيات الكافية لمضمون الحزن، فهو يتسم بالغموض والمراوغة والغرابة، فهو يعد ظاهرة يستعصي تفسيرها ولعل تكرار لفظة لعل يؤكد ذلك:

لعله التذكار

لعله الندم

لعله الأسى

ورغم هذا اللبس فإن الشاعر يصف الحزن بأنه "جنون" ولعل السر في ذلك يعود إلى طبيعة العلاقة بين الألم الذي يعانيه الإنسان، وما يفضي إليه ذلك الألم

فللعملية" التطهيرية" تعيد للذات اتزانها وتوازنها، لاسيما وأن هذا الزائر (الحزن) حسب تعبير الشاعر يجيء مرتبطا بفترة زمنية محددة هي (أواخر المساء) (يستيقظ الشيء الحزين في أواخر المساء) لأن الإنسان في هذه الفترة يقترب من ذاته أكثر، كما يقترب من الحقيقة الكبرى، إنها فترة يقترب من الحقيقة ويبتعد عن الزيف والنفاق، يكون أكثر مواجهة لذاته، ومن ثمة يحاول

التخفيف غير أن الحزن يظل جاثما على صدره، وتعد قصيدة "الحزن18 لصلاح من أكثر القصائد المجسدة لظاهرة الحزن يقول في بعض مقاطعها:

يا صاحبي، إني حزين

طلع الصباح، فما ابتسمت، ولم ينر وجهي الصباح

وخرجت من جرف المدينة اطلب الرزق المتاح

حزن طويل كالطريق من الجحيم إلى الجحيم،

حزن صموت،

والصمت لا يعني بأن الرضا أمنية تموت

وبان أياما تفوت

وبأن مرفقنا رهن

وبان ريحا من عفن

مس الحياة، فأصبحت وجميع ما فيها مقيت

الحزن قد سمل العيون

الحزن قد عقد الحياة

ليقيم حكاما طغاة

الحزن يفترش الطريق

إن حزن صلاح يتميز بكونه حزنا تاريخيا متجددا، يمتد في الزمان والمكان، فهو يمثل قهرا ليس ناجما عن علة ميتافيزيقية أو أخلاقية بالمعنى المثالي فحسب، بل هو أيضا قهر أرضي صنعته قوى إنسانية من اجل هدف محدد (الحزن قد سمل العيون/ قد عقد الحياة/ ليقيم حكاما طغاة).

كما تمثل قصيدته "أغنية إلى الله" رحلة حزن مؤلمة، فالمعاناة تسيطر عليه، كما تمتزج بالقلق والتوتر، فتتلبسه الرغبة في البحث عن المجهول، فتلك الأغنية تصور أشد لحظات العذاب وأعمق لحظات الحزن حين تتمزق النفس وتتكسر، فيها لمحات من صوفية الشاعر التي انطلقت من فكر وصنعت موقفا.

يقول: 19

لينثر فتات لحمنا على جناح عيشنا الغريب

ولنتغرب في قفار العمر والسهوب
ولنتكسر ... في كل يوم مرتين
سماء أمنياتنا
الله يا وحدتي المغلقة الأبواب
الله لو منحتني الصفاء
الله لو جلست في ظلالك الوارفة اللقاء
أجدل حبل الخوف والسأم
طول نهاري
أشنق فيه العالم الذي تركته وراء جداري
ثم أنام غارقا، فلا يغوص لي... حلم

يبدو من خلال المقطع ما مدى شعور الشاعر بالأسى والسأم، فهو يعيش الغربة في العالم أو الغربة السالبة، هذا ما جعله يرفض العالم الظاهري ويسعى لتجاوزه، لاسيما وأن حضور "الأنا" بصورة بارزة، في هذا المقطع يكشف عن إصرار الشاعر القوي في تجاوز الواقع، ولعل العبارات التالية توضح ذلك "لينثر فتات لحمنا، ولنتغرب في قفار العمر، لننكسر في كل يوم مرتين، أن نطول باليد | القصيرة، أجدل، أشنق

كما يوظف الشاعر في المقطع العديد من العبارات ذات المنحى الصوفي الدالة على القلق والحيرة "الله يا وحدتي المغلقة الأبواب، الله لو منحني الصفاء، الله لو جلست في ظلالك الوارفة اللقاء، نرى أوسع من أحداقنا، سماع أمنياتنا...". لا شك أن ورود لفظ الجلالة في أول الجمل "الله يا وحدتي المغلقة الأبواب، الله لو منحتي الصفاء الله لو جلست في ظلالك الوارفة..." تبرز الابتهال ثم تأتي الجمل الفعلية معبرة عن الحرية التي أعقبت النداء (أشنق في العالم، ثم أنام غارقا).

إن نص صلاح يمثل الخروج من عالم الماديات والدخول إلى عالم الأبدية، خروج من دائرة السالب والموجب ورحيل نحو المركز الثابت الذي يدور حوله الوجود، وقد قسم أحد الباحثين20 النص إلى مجموعة من الوحدات هي:

- دائرة الغربة: سالبة في معناها إلى جانب أنها تتم في قفار العمر.
- دائرة الانكسار: سالبة حيث تتم عند ذوبان الشمس.

– دائرة الأمنيات: سالبة لأنها بعيدة مقنعة مهاجرة.

– دائرة الرؤية: سالية لأنها بعيدة كرؤية العميان .

– دائرة السير : سالبة لأنها ثقيلة الخطى تنتهى بالسقوط.

أمام تلك الدوائر السالبة، هناك دائرة موجبة هي حضور الأنا التي تمثل المفردات التالية "نطول/ نرى /أجدل / أشنق /أنام".

فالشاعر في قصيدته "أغنية إلى الله" يتحرك من الداخل إلى الخارج فقد تحدث عن الوحدة والصفاء والتأمل ثم ارتد إلى الخارج، فأبرز يأسه من العالم الخارجي، كما تحدث عن أمنياته البعيدة، ومن ثمة فإن القصيدة تبدو غير ثابتة على وتيرة واحدة مثل الصوفي الذي يبدو منقلب الأحوال، ويظهر عدم ثبات القصيدة من خلال هجرة الأمنيات وموت الحلم، فمنذ بداية المقطع تتراوح الأمنيات بين إمكان التحقق من عدمه ،ولكن قوة عدم التحقق تتحدد من دلالة بعض المفردات مثل:

"لأنها بعيادة المطال في السماء/ تصير الأمنيات وهما / لأنها تفتحت بالغيم والضباب / هاجرت مع السحاب/ واستوطنت أعالي الهضاب..."،إضافة إلى هذا فإن البنية الزمنية تقع في محور ين:

– محور عدم تحقق الأمنيات في اللحظة الحاضرة

– محور انعدام الحلم الآتي.

ومن ثمة فإن المقطع يشكل تجسيد رؤية مأساوية من خلال رحلة الأمنيات التي تحولت إلى وهم وتقنعت بالغيم ثم هاجرت مع السحاب فصارت حلما وصار الحلم بأسا.

أمام هذا الوضع المتسم بالعجز والفتور فلا مناص من التوجه إلى الله طالبا العون، واللافت للانتباه أن هناك فرقا واضحا في الحالة النفسية للشاعر بين مقاطع النص :

فإذا كان في المقطع الأول يبدو فيه متمردا قويا يريد تحقيق الأمنيات، فإنه على خلاف ذلك نجده في المقطع الثاني يعلن عجزه ومحدوديته من خلال المفردات "أثقل من أن ترى /وان رأت فما يرى العميان / أقدامنا أثقل من أن تنقل الخطى/ يا ربنا العظيم/ يا إلهنا / أليس يكفي موتي بلا أكفان / حتى تذل زهونا وكبرياءنا".

نحن أمام حزن ثقيل يعيشه الشاعر، وقد بدا في المقطع الثالث أكثر حدة حيث انتابت الشاعر حالة من القلق تشي ما يعتري الصوفي في بحثه عن الخلاص.

يقول صلاح: 21

حزني ثقيل فادح هذا المساء
كأنه عذاب مصفدين في السعير
حزني غريب الأبوين
لأنه تكون ابن لحظة مفاجئة
ما مخضته بطن
أراد فجأة إذ يمتد، وسط ضحكتي
مكتمل الخلقة، موفور البدن
كأنه استيقظ من تحت الركام
بعد سيات في الدهور

إن حزن صلاح ليس حزنا عاديا، فهو حزن صوفي يسكن الذات القلقة التي تمر بتجربة روحية، ولعل المفردات " الحزن الغريب الثقيل / السعير / السبات. "

توضح أن الحزن الصوفي الذي يوجه العقل والنفس إلى طريق البحث والمعرفة، إنما نوع من المواجيد التي تطرأ فجأة فتعطي شعورا بأن شيئا سيحدث، ويظل الإنسان مأخوذا بهذه الحالة الفجائية الواردة إليه، والتي يصفها ابن عربي بقوله : 22 " كرجل يحدثك فأخذته فكرة في أمر، فصرف حسه إليه في خياله، فجمدت عينه ونظره وأنت تحدثه، فتنظر إليه غير قابل حديثك فتشعر أن باطنه متفكر في أمر آخر خلاف ما أنت عليه "

ولعل ما يؤكد أننا أمام حزن صوفي هو أن الشاعر قد خص المساء بحلول الحزن، ذلك لأن المساء كما نعرف هو وقت التأمل والتعبد لدى الصوفي، فهو وقت التجلي، وقت المناجاة، والوقوف في حضرة الحق، بينما النهار قد خص بالسعي .

يقول صلاح: 23

لقد بلوت الحزن حين يزدحم الهواء كالدخان
فيوقظ الحنين، هل ترى صحابتنا المسافرين

أحبابنا المهاجرين

وهل يعود يوما الذي مضى من رحلة الزمان؟

تم بلوت الحزن حين يتلوى كأفعوان

يشتمل المقطع على رؤية صوفية تتمثل في السفر والهجرة اللذين تحتلان نقطة مركزية في المقطع، فتتحقق بذلك وظيفتان الأولى شعرية جمالية والأخرى مادية تتوخى البحث وتحقيق هدف اللجوء إلى واقع آخر فاتحا للشاعر بين السفر والهجرة، يتشكل باعتباره بؤرة انفتاح لجلاء النفس المليئة بالحزن، فالبحث والحزن والليل، تلك الرؤى التي تنبثق من النص تمثل يوتوبيا الأسطر الشعرية

فالشاعر في قصيدته "أغنية إلى الله" بمقاطعها الخمسة يتدرج في رصد مشاعره، منطلقا بالحديث عن الغربة والانكسار حيث الحزن الوحشي، ثم راح يبحث عن الصفاء والاتصال بالمطلق، بينما جعل المقطع الأخير بمثابة نداء إلى الله، ليتحقق من خلاله اتصاله بالذات الكبرى، وتبقى القصيدة في صورتها النهائية تمثل تيمة الحزن والقلق المسيطر على الشعر العربي المعاصر، ولاسيما شعر صلاح عبد الصبور، غير أن حزنه يبدو هادفا ومثاليا، لكونه يعد بالدرجة الأولى عملية تطهيرية للذات، وفي نفس الوقت تحمل الهم الجمعي، فإذا كان صلاح على حد تعبير عز الدين إسماعيل أكثر شعرائنا المعاصرين حديثا عن الحزن، فإن الشاعر يقول: 24

"لست شاعرا حزينا، ولكن شاعر متألم، وتلك لأن الكون لا يعجبني، أو لأني أحمل بين جوانحي" كما قال شيلي: "شهوة لإصلاح العالم" كما يردد كذلك " إننا نتألم لأننا نحس بمسؤوليتنا، ونعرف أن هذا الكون هو قدرنا ".

ويرى الكثير أن أسباب حزنه تعود إلى طبيعة شخصيته، وصفوة القول أن حزنه هو "حزن ألم وجودي ومعرفي" فشاعرنا رغم الصيحات الموجهة للخالق للتخفيف من حزنه ومعاناته، يظل الشك يساوره، فيعود إلى التساؤل من جديد مخاطبا الله عز وجل: نسيتني ؟ نسيتني؟

ومع هذا يظل ساخرا من مأساته في كثير من قصائده ومسرحياته التي يستعين فيها ببعض الفنون لإثراء مواقفه وآرائه، وقد كان بالفعل جرحه عميقا، حيث توالت الإخفاقات في حياته، فقد اتسمت نصوصه – في أغلب المراحل — بالحزن والإدانة الصريحة لواقعه منها قصيدته "مذكرات

بشر الصوفي الحافي" التي اعتبر فيها الناس قطعانا من الحيوانات يأكل القوي ضعيفها، هذا ما جعله يتساءل: أين الإنسان؟ أين الإنسان ؟

كما عكست مسرحيته (مأساة الحلاج) رؤيته وإحساسه بالقهر، الذي طرح مفهومه، فهو القائل على لسان الحلاج حين سأله الشبلي:

ماذا تعن بالشر ؟

يقول: " فقر الفقراء 25 جوع الجوعى، في أعينهم تتوهج ألفاظ لا أوقن معناها

الفقر هو القهر ...

الفقر هو استخدام الفقر لإذلال الرمح

الفقر هو استخدام لقتل الحب وزرع البغضاء "

فالمسرحية تحسد صورة المثقف في أي عصر، وهي صورة تتسم بالقسوة والقهر والاستغلال والعنف من جانب السلطة والفقر والإحساس بالمعاناة بين الناس حيث ترى إحدى الباحثات26 أن الشاعر قد نجح في تجسيد شخصية الحلاج كمثقف ناضل بالكلمة ليسهم في نقل رؤيته

فقد صور الشاعر الحلاج من خلال بعدين هامين (البعد الواقعي والبعد الصوفي) والمسرحية في عمومها تعج بالمصطلحات الصوفية مثل: الحب / السكر / الفيض / النور / اليقين / الوهج / العرفان / الوجد/ الباطن / الأحوال الفقر / البوح / السر / العشق /.....

خاتمة :

لقد اتضح لنا من خلال تناولنا للدلالات الصوفية عند صلاح عبد الصبور وتوظيفه للتجربة الصوفية التي تعد معبرا لإبراز وجهة نظر المبدع تجاه ذاته والكون عموما. وتتجسد هذه التجربة من خلال معالجة ازمة الانسان الوجودية ذلك الانسان المقهور الثائر ضد التسلط والعبودية. تجربة عبرت في جوهرها عن ازمة المثقف في المجتمع طارحة من خلالها همومه وقضاياه بحثا عن الخلاص

- كان لصلاح عبدالصبور الاثر الواضح في النص الصوفي للجوئه الى توظيف مصطلحات كالحزن والقلق من خلال قصيدته مذكرات بشر الصوفي الحافي. لكون الانسان لم يعد انسانا لاختلاف مراتبهم في المجتمع.
- كما استدعى عبدالصبور شخصيات صوفية أمثال الحلاج وبشر الحافي ليعبر من خلالها عن طموحات الانسان الى الحرية والعدالة ومعبرا في الوقت ذاته عن زيف الواقع

ومفارقاته . عبر لغة تتسم بالغموض الذي اكسب النص حيوية وقدرة جعله يحمل اكثر من قراءة.

- وقد كشفت تلك الدلالات ما مدى تأزم الذات اما ما سلط عليها من طرف القوى التي تتحكم في مصيرها وامام هذه الاشكالية تشكلت هموم ومعناة عبدالصبور فراح يعبر عن تجربته من اجل الوصول الى الغاية الفنية.

هوامش:

1- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، دار العودة، (بيروت)، 1969. ص:08

2- صلاح عبد الصبور، الديوان، دار العودة، (بيروت) ، ط1، 1972 ،ص:261

3- صلاح عبد الصبور، الديوان، مرجع سبق ذكره، ص: 469

4- نفس المرجع السابق ،ص : 101

5- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، مرجع سبق ذكره، ص ص217 -219

6- ناجي حسين جودة . المعرفة الصوفية (دراسية فلسفية في مشكلات المعرفة) دار الجيل، ط1، (بيروت) 1992، ص ص: 160- 161.

7 - نفس المرجع السابق، ص : 137 .

8 - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي. (دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية) مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)، (لبنان)، ط 5، مايو 1996، ص : 254 .

9 - صلاح عبد الصبور: الديوان -المجلد الأول-، دار العودة (بيروت)،(لبنان) ،ط 1، 1972،ص: 204.

10 - نفس المرجع السابق، ص : 225 .

11 - صلاح عبد الصبور، الديوان -المجلد الأول-، مرجع سبق ذكره، ص: 266.

12 - قادة عقاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر -دراسة في إشكالية التلّقي الجمالي للمكان، اتحاد الكتّاب العرب ،2001 ،ص : 210 .

13 - صلاح عبد الصبور، الديوان -المجلد الأول-، مرجع سبق ذكره، ص: 294.

14 - نفس المرجع السابق، ص : 297 .

15 - نفس المرجع السابق، ص: 261.

16 - نفس المرجع السابق، ص: 266.

17 - نفس المرجع السابق، ص: 109.

18 - نفس المرجع السابق، ص: 36.

19 - نفس المرجع السابق ص: 204.

20 - سهير محمد سيد حسانين: العبارة الصوفية في الشعر العربي الحديث، أطروحة دكتوراه منشورة، كلية الدراسات العربية، جامعة المانيا، 1998 ،ص: 144.

21 - صلاح عبد الصبور، الديوان، مرجع سبق ذكره، ص: 106.

22 - سهير حسانين: العبارة الصوفية في الشعر العربي الحديث، مرجع سبق ذكره، ص: 115

23 - صلاح عبد الصبور، الديوان، مرجع سبق ذكره، ص: 107.

24 - صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، دار اقرأ، (بيروت)، (لبنان)، 1981، ص: 103.

25 - صلاح عبد الصبور، الديوان، مرجع سبق ذكره، ص: 469.

26 - ثريا العسيلي، المسرح الشعري عند صلاح عبد الصبور، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة)، 1995، ص ص: 61 - 62 .